الطريق إلى القدس

دراسة تاريخية

في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين
منذ عصور الأنبياء وحتى القرن الحادي والعشرين

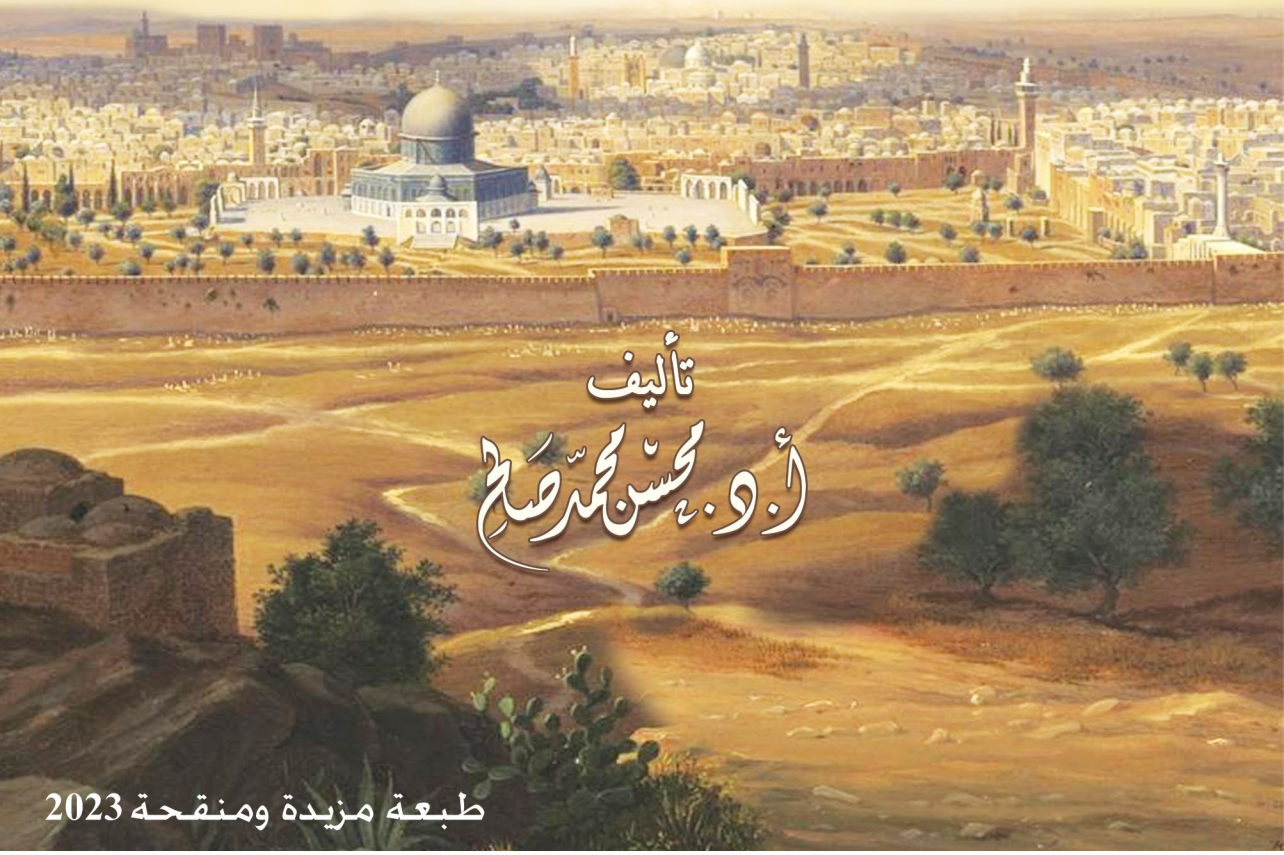

تأليف
أ.د. محسن محمد صالح

طبعة مزيدة ومنقحة 2023

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

الفصل الأول

صراع الحق والباطل
على أرض فلسطين قبل الفتح الإسلامي

بريد إلكتروني: info@alzaytouna.net الموقع: www.alzaytouna.net

يمكنكم التواصل معنا والاطلاع على صفحات المركز عبر الضغط على التطبيقات أدناه:

صراع الحق والباطل
على أرض فلسطين قبل الفتح الإسلامي

أولاً: شرعية ميراث الأنبياء:

قدّر الله سبحانه وتعالى أن تكون فلسطين أرضاً للرسل والأنبياء الذين حملوا راية التوحيد، ودعوا أقوامهم إلى الالتزام بها. وقد شهدت فلسطين في تاريخها القديم نماذج من قيادة الأنبياء وحكمهم لأقوامهم، وخاضوا عليهم السلام صراعات عنيفة في سبيل تثبيت راية الحق على الأرض المباركة.

وقبل أن نخوض في التفاصيل، يجب أن نثبت حقيقة مهمة، وهي أن المسلمين يؤمنون بكل الأنبياء، ويعدّون تراث الأنبياء تراثهم، ويعدّون رسالتهم الإسلامية امتداداً لرسالات الأنبياء الذين جاؤوا من قبلهم، وأن الدعوة التي دعا إليها الأنبياء هي الدعوة نفسها التي دعا إليها محمد ﷺ، وبالتالي فإن رصيد تجربة الأنبياء في دعوتهم للحق، وعبادة الله وحده لا تنفصم عن دعوة المسلمين، ورصيد تجربتهم.

وانظر إلى قوله سبحانه ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾،[1] فهي رسالة التوحيد التي يدعو إليها كل رسول. وعندما كان يكذّب أي قوم رسولهم، فقد كان ذلك تكذيباً لجميع المرسلين، وتأمل قوله تعالى في ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.[2]

ويغرق العديد من المؤرخين عند مواجهتهم لادعاءات اليهود المعاصرين بحقهم في فلسطين في الانشغال بعلوم الآثار، وذكر الشعوب التي استوطنت أو حكمت أو مرّت على فلسطين، وكم حكم كل منها هذه الأرض، ليخرجوا في النهاية بنتيجة مؤداها ضآلة الفترة والمساحة التي حكم فيها اليهود عبر التاريخ مقارنة بالعرب والمسلمين. وبالرغم من أن هذا الجانب مفيد في ردّ ادعاءات اليهود من النواحي التاريخية والعقلية والمنطقية، إلا أن كثيراً من هؤلاء الكتّاب والمؤرخين يقعون في خطأين كبيرين حسبما يظهر لنا:

الأول: اعتبار تراث الأنبياء الذي أرسلوا إلى بني إسرائيل أو قادوهم تراثاً خاصاً باليهود فقط، وهذا ما يريده اليهود!!

الثاني: الإساءة إلى سيرة عدد من أنبياء بني إسرائيل باستخدام الاستدلالات المستندة إلى توراة اليهود المحرفة نفسها...، وهم عندما يستخدمونها فإنما يقصدون الإشارة إلى "السلوك المشين" لمن كفر وفسق من بني إسرائيل وقادتهم عندما حلُّوا في فلسطين، ليضعفوا من قيمة دولتهم ويبينوا انحطاط مستواهم الحضاري...، ويُدخلون في الاستدلالات ما ذكرته الإسرائيليات من اتهام للأنبياء بالغش والكذب والزنى واغتصاب الحقوق وقتل الأبرياء، في محاولات لتشويههم وتشويه صورة حكمهم ودولتهم في ذلك الزمان.

لقد كفانا القرآن الكريم مؤونة التعرف على أخلاق من كفر وفسق من اليهود وفسادهم وإفسادهم، غير أن أنبياءهم وصالحيهم أمر آخر، فالأنبياء خير البشر، ولا ينبغي الإساءة إليهم، والانجرار خلف الروايات الإسرائيلية المحرفة، التي لا تسيء للأنبياء فقط، وإنما إلى الله تبارك وتعالى*. وعلى سبيل المثال تذكر التوراة المحرفة والتلمود أن الله (تعالى عما يقولون علواً كبيراً) يلعب مع الحوت والأسماك كل يوم ثلاث ساعات، وأنه بكى على هدم الهيكل حتى صغر حجمه من سبع سموات إلى أربع سموات، وأن الزلازل والأعاصير تحدث نتيجة نزول دمع الله على البحر ندماً على خراب الهيكل...[3] هذا بالإضافة إلى ما ذكره القرآن من ادعاءاتهم ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾،[4] ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾،[5] ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾... .[6]

كما ينسب من حرَّف التوراة من اليهود إلى سيدنا يعقوب عليه السلام سرقة صنم ذهبي من أبيه، وأنه صارع الله!! قرب نابلس وسمي لذلك بإسرائيل، كما تنسب له رشوة أخيه وخدعة أبيه، وأنه سكت عن زنا ابنتيه، وأنه أشرك بربه...!! وقِسْ على ذلك ما ذكروا عن باقي الأنبياء عليهم السلام.[7]

* نحن هنا نعرض الفهم الإسلامي لليهود وسلوكهم، وإنَّ طرح أي من المسلكيات الخاطئة لا يعني إطلاقاً عداءً لليهود لمجرد كونهم يهوداً، أو ما يعرف بالمصطلحات المعاصرة "العداء للسامية"؛ لأن الفهم الإسلامي يميز بين أنبياء اليهود وصالحيهم وبين من فسد وكفر وانحرف منهم؛ ولأنه يتعامل معهم كبشر، يصيبون ويخطئون، ويؤمنون ويكفرون، وينجحون ويفشلون...؛ ويتعامل معهم بحسب أوضاعهم كأهل ذمة أو كمعاهدين أو كمحاربين؛ ولكلٍّ أحكامه التي يبنيها الإسلام على أسس العدل والتسامح وحرية الاعتقاد، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقه، بغضِّ النظر عن دينه أو لونه أو جنسه.

إن أولئك الذين حرَّفوا التوراة من اليهود، قد ساروا على نهجها المحرف في أخلاقهم وفسادهم وإفسادهم، محتجين بما نسبوه إلى أنبيائهم كذباً وزوراً. ومن الواجب على المؤرخين وخصوصاً المسلمين ألا يندفعوا في استقرائهم لتاريخ فلسطين إلى اتهام أنبياء الله ورسله بما افتراه عليهم هؤلاء اليهود، وذلك في سبيل إثبات حقّ الأقوام الأخرى في فلسطين.

وإذا كانت رابطة العقيدة والإيمان هي الأساس الذي يجتمع عليه المسلمون مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم، فإن المسلمين هم أحق الناس بميراث الأنبياء، بما فيهم أنبياء بني إسرائيل، لأن المسلمين هم الذين ما يزالون يرفعون الراية التي رفعها الأنبياء، وهم السائرون على دربهم وطريقهم، وهؤلاء الأنبياء هم مسلمون موحدون حسب الفهم القرآني.

وانظر إلى قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾،[8] وقوله تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾،[9] وقوله تعالى ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.[10] هذه الآيات من الوضوح بما لا يحتاج معه إلى الشرح. وفي المقابل فإن الإسلام يعدّ الإيمان بالأنبياء والرسل أحد أركان الإيمان، تأمل قوله تعالى ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.[11]

وبشكل عام فأمة التوحيد هي أمة واحدة من لدن آدم عليه السلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وأنبياء الله ورسله وأتباعهم هم جزء من أمة التوحيد، ودعوة الإسلام هي امتداد لدعوتهم، والمسلمون هم أحق الناس بأنبياء الله ورسله وميراثهم.

فرصيد الأنبياء هو رصيدنا، وتجربتهم هي تجربتنا، وتاريخهم هو تاريخنا، والشرعية التي أعطاها الله للأنبياء وأتباعهم في حكم الأرض المباركة المقدسة، هي دلالة على شرعيتنا وحقنا في هذه الأرض وحكمها.

نعم، لقد أعطى الله سبحانه هذه الأرض لبني إسرائيل عندما كانوا مستقيمين على أمر الله، وعندما كانوا يمثلون أمة التوحيد في الأزمان الغابرة. ولسنا نخجل أو نتردد في ذكر هذه الحقيقة، وإلا خالفنا صريح القرآن، ومن ذلك قول موسى عليه السلام لقومه ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾.[12] غير أن هذه الشرعية ارتبطت بمدى التزامهم بالتوحيد، والالتزام بمنهج الله، فلما كفروا بالله وعَصوا رسله وقتلوا الأنبياء ونقضوا عهودهم وميثاقهم، ورفضوا اتّباع الرسالة الإسلامية التي جاء بها محمد ﷺ، وهو النبي الذي بشَّر به أنبياء بني إسرائيل قومهم ﴿ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾[13] وقوله تعالى ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾،[14] فلما فعلوا ذلك حلَّت عليهم لعنة الله وغضبه ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ﴾[15] وقال تعالى ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾.[16]

وبذلك تحولت شرعية حكم الأرض المقدسة إلى الأمة التي سارت على منهج الأنبياء، وحملت رايتهم وهي أمة الإسلام. فالمسألة في فهمنا ليست متعلقة بالجنس والنسل والقوم، وإنما باتباع المنهج.

واستطراداً في مناقشة الادعاءات اليهودية بحقهم في فلسطين وفق نصوص التوراة، نشير إلى ما يذكرونه في التوراة المحرفة من إعطاء هذه الأرض لإبراهيم عليه السلام ونسله. ومما جاء فيها "وقال الرب لإبراهيم: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك... فذهب إبراهيم كما قال الرب... فأتوا إلى أرض كنعان... وظهر الرب لإبراهيم، وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض".[17] وجاء في التوراة المحرفة أيضاً "وسكن [إبراهيم عليه السلام] في أرض كنعان، فقال له الرب: ارفع عينيك، وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً؛ لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد".[18] وجاء فيها أيضاً "قطع الرب مع إبراهيم ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض. من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات".[19]

وللرد على ذلك، بالإضافة إلى فهمنا للمسألة في أصلها الشرعي، نقول:

1. إذا كان هناك عهد، فقد أعطي لإبراهيم عليه السلام ولنسله، وليس بنو إسرائيل وحدهم نسل إبراهيم، فالعرب المستعربة هم من نسله أيضاً (أبناء إسماعيل عليه السلام) ومنهم محمد صلى الله عليه وسلم.

2. إذا كانت المسألة مرتبطة بالنسل والتناسل، فالدلائل تشير إلى أن الأغلبية الساحقة لليهود في عصرنا ليست من نسل إبراهيم عليه السلام، وذلك أن معظم يهود اليوم هم من يهود الخزر Khazars، الذين دخلوا هذا الدين في القرنين: التاسع والعاشر الميلاديين!!

3. إن القرآن الكريم يوضح مسألة إمامة سيدنا إبراهيم وذريته في شكل لا لبس فيه، وتأمل قوله تعالى ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.[20]

فعندما سأل إبراهيم الله تعالى أن تكون الإمامة في ذريته بيَّن الله له أن عهده لذريته بالإمامة لا يستحقه، ولا يناله الظالمون، وأي ظلم وكفر وصدٍّ عن سبيل الله، أكبر مما فعله بنو إسرائيل بحسب ما تشير مصادرهم نفسها، وبحسب ما يشير القرآن الكريم؟!

أما ما يتعلق بادعاءات اليهود التاريخية، فقد كفانا الكثير من المؤرخين مؤونة الرد عليها، ففترة حكم فلسطين تحت راية الإسلام هي أطول الفترات التاريخية، والشعوب التي استوطنت فلسطين قبل مجيء اليهود بأكثر من ألف عام ظلّت مستقرة فيها حتى الآن، وقد اندمجت بها الهجرات العربية قبل وبعد الفتح الإسلامي، وهي التي يتشكل منها شعب فلسطين الحالي بدينه الإسلامي ولغته وسماته العربية.[21]

ثانياً: نظرة تاريخية:

تشوب دراسة التاريخ القديم الكثير من الصعوبات، وعادة ما يلجأ المؤرخون إلى دراسة الآثار، وفكِّ رموز اللغات القديمة التي تمت الكتابة بها على بعض الآثار، كما يستفيدون مما يكتشفونه من لفائف وأوراق وجلود وعظام عليها بعض الكتابات، وكذلك مما يستحصلونه من مخطوطات وكتب التاريخ والتراث القديمة. وفي دراستهم لتاريخ فلسطين القديم كانوا كثيراً ما يلجأون إلى ما كتبته التوراة، وما تناقله اليهود، غير أن

الاعتماد تزايد في هذا العصر على الآثار... . ونحن في دراستنا سنحاول الاستفادة مما ذكره القرآن الكريم والسنة النبوية، ثم نحاول استكمال الصورة بما لدينا من أخبار وآثار، لا تتعارض مع صحيح ما نعتقده. وسنلتزم هنا بالاختصار غير المخل بالمعنى المراد، وفي حدود دراستنا للتجربة الإسلامية على أرض فلسطين.

سكن الإنسان أرض فلسطين منذ العصور الموغلة في القدم، وهناك آثار تعود إلى العصر الحجري القديم (500 ألف – 14 ألف ق.م) والعصر الحجري الوسيط (14 ألف – 8 آلاف ق.م) حيث يطلق على هذا العصر في فلسطين الحضارة النطوفية نسبة إلى مغائر النطوف شمال القدس، وأصل النطوفيين غير معروف حتى الآن، تركزت حضارتهم على الساحل وعاشوا في المغائر والكهوف كمغائر جبل الكرمل.

وفي العصر الحجري الحديث (8000–4500 ق.م) انتقلت حياة الإنسان في فلسطين إلى الاستقرار، وتحول من جمع الغذاء إلى إنتاجه، وفي أريحا ظهرت أول الدلائل على حياة الاستقرار، وهي تعدّ، حتى الآن، أقدم مدن العالم؛ حيث أنشئت نحو 8000 ق.م.

وامتد العصر الحجري النحاسي من 4500–3300 ق.م، وقد كشف عن مواقع حضارية أثرية تعود إلى تلك الفترة في منطقة بئر السبع، وبين جبال الخليل والبحر الميت، والخضيرة على السهل الساحلي.

وتميزت بداية الألف الثالث ق.م بظهور الإمبراطوريات القديمة في الشرق، وقد رافق ذلك التوصل إلى الكتابة والبدء بتدوين التاريخ، ومن هنا تبدأ العصور التاريخية في فلسطين.

ويطلق على الفترة الممتدة من 3200–2000 ق.م اسم العصر البرونزي القديم، وقد تميزت هذه الفترة بظهور المدن التحصينية الدفاعية التي قامت على هضاب مرتفعة، وانتشرت بأعداد كبيرة، وكانت غالبيتها في وسط وشمال فلسطين، ومن أهم المواقع بيسان ومجدُّو والعفولة ورأس الناقورة وتلّ الفارعة غربي نابلس، وفي الألف الثالث ق.م زاد عدد سكان فلسطين، ونمت المدن، وأصبح لها قوة سياسية واقتصادية مما يمكن تسميته عصر "دويلات المدن".

أبرز المواقع الأثرية في فلسطين

وخلال الألف الثالث ق.م هاجر إلى فلسطين العموريون "الأموريون" والكنعانيون، وكذلك اليبوسيون والفينيقيون (وهما يُعدان من البطون الكنعانية)، وعلى ما يظهر فقد كانت هجرتهم إلى فلسطين نحو 2500 ق.م، حيث استقر الكنعانيون في سهول فلسطين، وتركز العموريون في الجبال، واستقر اليبوسيون في القدس وما حولها، وهم الذين أنشأوا مدينة القدس وأسموها "يبوس" ثم "أورسالم"، أما الفينيقيون فاستقروا في الساحل الشمالي لفلسطين وفي لبنان.

ويرى ثقات المؤرخين أن العموريين والكنعانيين واليبوسيين والفينيقيين قد خرجوا من جزيرة العرب، وأن سواد أهل فلسطين الحاليين، وخصوصاً القرويين هم أنسال تلك القبائل والشعوب القديمة أو من العرب والمسلمين الذين استقروا في البلاد إثر الفتح الإسلامي لها.

لقد كانت هجرة الكنعانيين واسعة في تلك الفترة بحيث أصبحوا السكان الأساسيين للبلاد، واسم أرض كنعان هو أقدم اسم عرفت به أرض فلسطين، وقد أنشأ الكنعانيون معظم مدن فلسطين، وكان عددها، حسب حدود فلسطين الحالية، لا يقل عن 200 مدينة خلال الألف الثاني ق.م وقبل قدوم العبرانيين اليهود بمئات السنين، ومن المدن القديمة بالإضافة إلى أريحا والقدس مدن شكيم "بلاطة، نابلس" وبيسان وعسقلان وعكا وحيفا والخليل وأسدود وعاقر وبئر السبع وبيت لحم... .

فلسطين في عهد الكنعانيين

ثم جاء العصر البرونزي الوسيط (2000–1550 ق.م) حيث شهد النصف الأول من الألف الثاني ق.م حكم الهكسوس الذين سيطروا على فلسطين خلال القرون 18–16 ق.م.

وبدأ العصر البرونزي المتأخر (1550–1200 ق.م) بانزواء حكم الهكسوس ودخول فلسطين تحت سيطرة الحكم المصري المطلق، أما العصر الحديدي (1200–330 ق.م) فيظهر أنه في بدايته (1200 ق.م تقريباً) استقبلت فلسطين مجموعات مهاجرة من مناطق مختلفة أبرزها هجرات "شعوب البحر" التي يظهر أنها جاءت من غرب آسيا ومن جزر بحر إيجه (كريت وغيرها) وقد هاجمت هذه الشعوب في البداية سواحل الشام ومصر، ولكن فرعون مصر، رعمسيس الثالث، صدها عن بلاده في معركة بلوزيون "قرب بور سعيد" وأذن لها أن تستقر في الجزء الجنوبي من فلسطين، وورد في النقوش الأثرية اسمها "ب ل س ت"، ومنها جاءت تسميتهم "فلسطيون" ثم زيدت النون إلى اسمهم (ربما على اعتبار الجمع) فأصبحوا فلسطينيين، وقد أقام الفلسطيون خمس ممالك هي مدن غزة، وأسدود، وجت، وعقرون، وعسقلان، وهي مدن المرجح أنها كنعانية قديمة، غير أنهم وسعوها ونظموها، ثم أنشأوا مدينتين جديدتين هما اللد وصقلغ، واستولوا على بقية الساحل حتى جبل الكرمل، كما استولوا على مرج ابن عامر...، وسرعان ما اندمج الفلسطيون بالكنعانيين، واستعملوا لغتهم وعبدوا آلهتهم "داجون وبعل وعشتار". وبالرغم من أن الفلسطيين ذابوا في السكان إلا أنهم أعطوا هذه الأرض اسمهم فأصبحت تعرف بفلسطين.[22]

ويظهر من الدلائل التاريخية المقارنة أن موسى عليه السلام قاد بني إسرائيل باتجاه الأرض المقدسة في النصف الأخير من القرن 13 ق.م، أي أواخر العصر البرونزي المتأخر، الذي شهد هو وبداية العصر الحديدي بداية الدخول اليهودي إلى فلسطين، ثم قيام مملكة داود وسليمان عليهما السلام (1004–923 ق.م)، التي انقسمت إلى مملكة إسرائيل (923–722 ق.م)، ومملكة يهودا (923–586 ق.م)، والتي حكمت كل منها جزءاً محدوداً من أرض فلسطين، ومنذ 730 ق.م دخلت فلسطين بشكل عام تحت النفوذ الآشوري القادم من العراق حتى 645 ق.م. ثم ورثهم البابليون في النفوذ حتى 539 ق.م، وكان الآشوريون والبابليون يتداولون النفوذ على فلسطين مع مصر. ثم إن الفرس غزوا فلسطين وحكموها خلال الفترة 539–332 ق.م.

ثم دخلت فلسطين في العصر الهلينستي اليوناني، حيث حكمها البطالمة حتى 198 ق.م، ثم ورثهم السلوقيون Seleucid حتى 64 ق.م. عندما جاء الرومان، وسيطروا على فلسطين، وبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية، ظلّت فلسطين تتبع الإمبراطورية الرومانية الشرقية "دولة الروم" وعاصمتها القسطنطينية حتى جاء الفتح الإسلامي، وأعطاها صبغتها العربية الإسلامية سنة 636م.[23]

ثالثاً: دعوة الحق ومسيرة الأنبياء على الأرض المقدسة:

كان **إبراهيم** عليه السلام أول الأنبياء الذين نعلم أنهم عاشوا في فلسطين، وماتوا فيها، وإبراهيم عليه السلام هو أبو الأنبياء، فمن نسله جاء الكثير من الأنبياء كإسحق ويعقوب ويوسف وإسماعيل ومحمد عليهم أفضل الصلاة والسلام.

ولد إبراهيم عليه السلام، حسبما ورد من آثار، في "أور" في العراق[24] وعاش هناك ردحاً من الزمن؛ حيث قام بتحطيم الأصنام، ودعا إلى التوحيد، وواجه النمرود، وألقمه الحجة، وألقي في النار عقاباً له على تحطيم الأصنام فجعلها الله عليه برداً وسلاماً، وهاجر إبراهيم ومعه ابن أخيه لوط في سبيل الله[25] ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.[26]

ويظهر أن إبراهيم عليه السلام في البداية هاجر ومن معه إلى حرَّان (الرُّها) وهي تقع الآن في جنوب تركيا إلى الشمال من سورية، ومن هناك هاجر ومعه ابن أخيه لوط إلى أرض كنعان "فلسطين" نحو 1900 ق.م،[27] قال تعالى ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾.[28] وكان هذا التاريخ بالنسبة لتاريخ العراق القديم يمثل نهاية عهد "أور الثالثة" التي حكمها السومريون وبداية العصر البابلي القديم الذي سيطرت فيه العناصر السامية القادمة من جزيرة العرب "العموريون". وهناك في فلسطين ولد إسماعيل وإسحق ويعقوب عليهم السلام.

نزل إبراهيم عليه السلام في شكيم قرب نابلس، ومنها انتقل إلى جهات رام الله والقدس، ومرّ بالخليل ثم ببئر السبع؛ حيث استقر حولها زمناً، ثم ارتحل إلى مصر، وكان ذلك يوافق تقريباً عهد الأسرة الـ 11 أو الـ 12 لفراعنة مصر، وعاد من مصر ومعه "هاجر" التي أهداها الزعيم المصري له، وذكر في رواية أنها ابنة فرعون أو إحدى الأميرات، ثم عاد إلى فلسطين، فمرّ بجوار غزة؛ حيث التقى أبا مالك أمير غزة، ثم تجوّل بين بئر السبع والخليل، ثم صعد إلى القدس. ثم إن لوطاً عليه السلام انتقل إلى جنوب البحر الميت؛ حيث أُرسل لأهل تلك المنطقة، بينما مكث إبراهيم عليه السلام في جبال القدس والخليل. وقد ولد إسماعيل عليه السلام لإبراهيم من زوجته هاجر، ثم رزق بإسحق بعد ذلك بـ 13 عاماً من زوجته سارة.[29] ويبدو أن إبراهيم رزق بأبنائه وهو في سنٍّ كبيرة نستشف ذلك من قوله تعالى على لسان سارة ﴿يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾.[30]

ويبدو أن إبراهيم عليه السلام تردد على الحجاز أكثر من مرة، فقد أحضر إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة، وقصة سعي هاجر بين الصفا والمروة، وتفجر ماء زمزم مشهورة، ثم إن

إبراهيم عاد فبنى مع إسماعيل الكعبة ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.[31] غير أن مركز استقرار إبراهيم كان في ظلّ فلسطين، وفيها توفي حيث دفن في مغارة المكفيلة قرب "الخليل"، وهي المدينة التي سميت باسمه عليه السلام وقيل إنه عمَّر 175 عاماً.[32]

عاصر إبراهيم عليه السلام حاكم القدس "ملكي صادق" وكان على ما يبدو موحَّداً، وكان صديقاً له،[33] وفي تلك الفترة كان المؤمنون بالله قلة نادرة، فقد ذكر رسول الله ﷺ أن إبراهيم قال لزوجته سارة عندما أتى على جبار من الجبابرة "ليس على الأرض مؤمن غيري وغيرك"،[34] ويظهر أن ذلك حدث عندما ذهبا لمصر. ولعلنا نستشف هذا المعنى من قوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾.[35] وعلى كل حال فإن أبا الأنبياء إبراهيم الخليل كان رسولاً من أولي العزم من الرسل، وكان له دوره الدعوي في نشر رسالة التوحيد في فلسطين؛ حيث كان يؤسس المساجد، ويقيم المحاريب لعبادة الله في كل مكان ذهب إليه. ويظهر أنه لم يجِد عناء أو عنتاً من أهل فلسطين، ولم يضطر لتركها بسبب دينه ودعوته، فظل مستقراً يتنقل بحرية فيها حتى توفاه الله.

أما **لوط** عليه السلام فقد استقر جنوب البحر الميت؛ حيث أرسل إلى قرية "سدوم"، وهؤلاء كانوا يفعلون الفاحشة بالرجال "اللواط" وقد نهاهم لوط عن هذا، فأعرضوا واستكبروا، فانتقم الله منهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴿٨٤﴾﴾،[36] ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.[37]

ويشير القرآن الكريم إلى أن إبراهيم عليه السلام قد عاصر رسالة لوط وهلاك قومه. فقد جاءته الملائكة، وبشروه بإسحق، وأخبروه بأنهم مرسلون لتدمير قوم لوط، فقال لهم ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾.[38] وهكذا نَصَرَ الله سبحانه رسوله لوطاً، وطهّر أرضه المباركة من ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۚ﴾،[39] وجاءت البشرى لإبراهيم بإسحق ليحمل راية التوحيد من بعده على الأرض المباركة، وليتواصل انتشار النور الإلهي فيها.

وعاش **إسحق** في أرض فلسطين، ورزقه الله سبحانه يعقوب عليه السلام (إسرائيل) والذي يعدّه اليهود أباهم، وكان إسحق ويعقوب منارات للهدى بعد إبراهيم عليه السلام، وانظر إلى البيان القرآني في إيجازه وروعته ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.[40]

ولد **يعقوب** عليه السلام في القرن 18 ق.م (نحو 1750 ق.م) في فلسطين، غير أنه هاجر على ما يظهر إلى حرّان "الرها" وهناك تزوج وولد له 11 ابناً، منهم يوسف عليه السلام بينما ولد ابنه الـ 12 بنيامين في أرض كنعان "فلسطين". وقد رجع يعقوب عليه السلام وأبناؤه إلى فلسطين وسكن عند "سعّير" قرب الخليل،[41] وقصته وقصة ابنه **يوسف** مشهورة ومفصلة في سورة يوسف من القرآن الكريم. وهي التي تحكي تآمر إخوة يوسف على يوسف، وإلقاءه في البئر، واكتشاف قافلة له وبيعهم إياه في مصر، حيث شبّ هناك ودعا إلى الله، وصمد أمام فتنة النساء، وصبر في السجن حتى أكرمه الله بأن يوضع على خزائن مصر بعد تأويله الرؤيا وثبوت براءته. ثم إن يوسف استقدم أباه يعقوب وإخوته إلى مصر؛ حيث رد الله البصر إلى يعقوب بعد أن ابيضت عيناه على فراق يوسف، كما عفا يوسف عن إخوته. وتذكر بعض الروايات أن يعقوب عاش في مصر 17 عاماً غير أنه دفن عليه السلام إلى جوار جده وأبيه إبراهيم وإسحق في الخليل.[42]

ويبدو أن تلك الفترة التي عاش فيها يعقوب وأبناؤه في مصر كانت توافق حكم الهكسوس لمصر، وهم أصلاً من غير المصريين، ويمثل حكمهم الأسرتين الـ 15 و16 من الأسر التي حكمت مصر، واللتين امتد حكمهما لمصر خلال الفترة 1774–1567 ق.م.

وعلى كل حال، يظهر أن يوسف وإخوته أبناء يعقوب نعموا بحرية العمل والعبادة في مصر، وكان لهم دورهم في الدعوة إلى التوحيد، غير أن الأمر لم يستمر على حاله في أجيالهم المتعاقبة، فوقع بنو إسرائيل تحت الاضطهاد الفرعوني حتى أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون لإخراج بني إسرائيل منها إلى الأرض المقدسة.

لقد كان بنو إسرائيل في تلك الفترة هم أهل الحق وحملة راية التوحيد، وكان فرعون مصر ذلك الزمان متكبراً متعجرفاً يدّعي الألوهية ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[43] وكان مفسداً يضطهد بني إسرائيل، فيذبِّح أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ

إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.[44] وقد ولد **موسى** عليه السلام في هذا الجو وتربى، في بيت فرعون في تدبير رباني محكم، وهو الذي كان يجب أن يُقتل، وقصة موسى ونشأته ودعوته لفرعون وخروجه ببني إسرائيل وهلاك فرعون أشهر من أن تروى، وهي من أكبر وأكثر قصص القرآن ذكراً وتكراراً لما فيها من الدروس والعبر، ومن التعريف ببني إسرائيل وطبائعهم....

قدّر الله سبحانه أن يعطي تلك الفئة المؤمنة في ذلك الزمان أرض فلسطين ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦﴾.[45] وأرسل موسى عليه السلام إلى فرعون بهذا الأمر، يعاونه في ذلك أخوه هارون الذي بُعث رسولاً أيضاً ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠٤ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٠٥﴾.[46] غير أن فرعون يأبى ويتكبر ولا يؤمن بالآيات والمعجزات التي جاء بها موسى. ويؤمن السحرة الذين حشدهم فرعون بدعوة موسى، ويُسْقَط في يد فرعون.[47] ويبدو أن الذين أظهروا إيمانهم، وانضموا إلى بني إسرائيل كانوا عدداً محدوداً من فتيان بني إسرائيل، وكان إيمانهم مقروناً بخوف من أن يفتنهم فرعون ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٞ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾.[48] ثم إنّ موسى عليه السلام قاد من آمن من قومه شرقاً فاتّبعهم فرعون وجنوده، وحدثت قصة انشقاق البحر، وإنقاذ الله سبحانه لبني إسرائيل، وهلاك فرعون وجنوده ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ۝٦٦﴾.[49]

ونقف هنا عند بعض الآراء والروايات التاريخية التي يظهر منها أن عدد من خرج مع موسى من مصر كان قرابة 6 آلاف فقط أو 15 ألفاً على بعض الروايات. أما تلك الفترة من الناحية التاريخية فكانت على ما يبدو خلال القرن الـ 13 قبل الميلاد. وكان خروج بني إسرائيل من مصر تحديداً في نحو الثلث الأخير من ذلك القرن. وهي فترة توافق حكم "رعمسيس الثاني" المشهور في هذا العصر بـ"رمسيس الثاني"،[50] ومن تقدير الله أن جثة هذا الفرعون معروضة في أحد المتاحف المصرية الآن، وهذا يذكرنا بقوله سبحانه ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.[51] بل وتؤخذ جثته بين فترة وأخرى لتعرض في متاحف البلاد الغربية،

والناس الذين يزورون جثته ينشغلون بالتأمل في علم التحنيط دون أن يذكروا آيات الله في هذا الفرعون!! فارجع لتقرأ مرة أخرى قوله تعالى ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾.[52]

وبعد إنقاذ الله سبحانه لبني إسرائيل تبرز فصول معاناة موسى وهارون معهم، ويظهر من صفات هؤلاء ضعف الإيمان والجهل والجبن، فما كادوا يخرجون من البحر حتى أتَوا على قوم يعبدون أصناماً ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾!!،[53] ثم عندما يذهب موسى لميقات ربه، يعبد قومه العجل على الرغم من وجود هارون بينهم!! ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[54] ﴿فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ﴾،[55] وكادوا يقتلون هارون عندما نهاهم عن كفرهم، وهو الذي قال لأخيه موسى ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى﴾[56] وغيرها من المواقف.

ثم يقود موسى بني إسرائيل باتجاه الأرض المقدسة، ويقول لهم ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾،[57] ولكنهم يختارون الارتداد على أدبارهم!! ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾،[58] ولا ينفع فيهم النصح فيكررون ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾!!.... [59]

ويُعلِّق سيد قطب، رحمه الله، على موقف بني إسرائيل هذا فيقول: "إن جبلة يهود لتبدو هنا على حقيقتها، مكشوفة بلا حجاب ولو رقيق من التجمل...، إن الخطر ماثل قريب، ومن ثم لا يعصمهم منه حتى وعد الله لهم بأنهم أصحاب الأرض، وأن الله قد كتبها لهم. فهم يريدون نصراً رخيصاً، لا ثمن له، ولا جهد فيه، نصراً مريحاً يتنزل عليهم تنزل المن والسلوى".... "وهكذا يخرج الجبناء فيتوقحون، ويفزعون من الخطر أمامهم، هكذا في وقاحة العاجز لا تكلفه وقاحة اللسان إلا مدّ اللسان... ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾! فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال! ﴿إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ لا نريد ملكاً، ولا نريد عزاً، ولا نريد أرض ميعاد... ودونها لقاء الجبارين، هذه نهاية المطاف بموسى عليه السلام، نهاية الجهد الجهيد، والسفر الطويل، واحتمال الرذالات، والانحرافات، والالتواءات من بني إسرائيل!".[60]

ويتألم موسى عليه السلام ويلجأ إلى ربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾،[61] ويستجيب الله لنبيه ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۚ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[62] وهكذا يحكم عليهم بالتيه بعد أن كانوا على أبواب الأرض المقدسة، ويظهر أن الله سبحانه قد حرمها على هذا الجيل من بني إسرائيل حتى ينشأ جيل غيره يصلب عوده في جوٍّ من خشونة الصحراء، فهذا الجيل "أفسده الذل، والاستعباد، والطغيان في مصر، فلم يعد يصلح لهذا الأمر الجليل".[63]

وتوفي موسى عليه السلام قبل أن يستطيع دخول الأرض المقدسة، وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إن موسى عندما حان أجله قال: "رب أدنني من الأرض المقدسة رمية بحجر" قال رسول الله ﷺ "والله لو أني عنده لأريتكم مكان قبره إلى جنب الطريق عند الكثيب الأحمر".[64]

وبعد أن نشأ جيل صلب جديد، وبعد سنوات التيه قاد بني إسرائيل نبي لهم هو **يوشع بن نون** عليه السلام Joshua son of Nun ويسميه اليهود "يشوع" وهو الذي عبر بهم نهر الأردن، وانتصر على أعدائه، واحتل مدينة أريحا، وكان عبوره نهر الأردن نحو 1190 ق.م، ثم غزا "عاي" بجوار رام الله، وحاول فتح القدس، ولكنه لم يستطع، وكان عدد اليهود قليلاً بحيث يصعب عليهم الانتشار، واحتلال كافة المناطق، والسيطرة عليها.[65] ومما نعلمه عن يوشع من حديث رسول الله ﷺ أن يوشع التقى أعداءه في معركة طالت، حتى كادت الشمس أن تغيب، فدعا الله ألا تغيب الشمس حتى تنتهي المعركة، وينتصر، فاستجاب الله لدعوته، فأخَّر غروب الشمس حتى انتصر يوشع.[66]

وبعد يوشع عليه السلام تولى قيادة اليهود زعماء عرفوا بـ"القضاة" وعرف عصرهم بـ"عصر القضاة". وعلى الرغم من محاولاتهم إصلاح قومهم فقد ساد عصرهم الذي دام نحو 150 عاماً الفوضى والنكبات والخلافات والانحلال الخُلُقي والديني بين بني إسرائيل. وقد استوطنوا في تلك الفترة في الأراضي المرتفعة المحيطة بالقدس وفي السهول الشمالية في فلسطين.[67]

ولما شعر بنو إسرائيل بحالهم المتردي طلب الملأ منهم من نبيّ لهم، يقال أن اسمه "صموئيل"، أن يبعث عليهم ملكاً يقاتلون تحت رايته في سبيل الله، ولكن نبيهم الذي يعرف طباعهم قال لهم ﴿هَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ

تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[68] وأخبرهم نبيهم أن الله قد بعث عليهم طالوت ملكاً فاعترضوا بأنهم ﴿أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾[69] وأنه ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾[70] فقال لهم نبيهم إن الله اصطفاه عليهم وزاده بسطة في العلم والجسم.

وتولى القائد المؤمن طالوت المُلك على بني إسرائيل، وكان ذلك نحو 1025 ق.م، وتسميه الروايات الإسرائيلية "شاؤول"، وتساقط أتباعه في الاختبار عندما ابتلاهم الله بنهر، ومنعهم من الشرب منه ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[71] ثم تساقط الكثير من القليل الذي بقي في الاختبار التالي عندما رأوا جالوت وجنوده فقالوا ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾[72] ولم تثبت في النهاية إلا ثلة قليلة مؤمنة، أعطاها الله سبحانه النصر، وقتل داود عليه السلام، وكان فتى في هذه المعركة، جالوت بالمقلاع.[73]

ولا نعرف بعد ذلك ما حصل يقيناً لطالوت، غير أن الروايات الإسرائيلية تذكر أنه في 1004 ق.م تقريباً استطاع الفلسطيون الانتصار على طالوت "شاؤول" في معركة جلبوع، وأنهم قتلوا ثلاثة من أبنائه، وأكرهوه على الانتحار وقطعوا رأسه، وسمّروا جسده وأجساد أولاده على سور مدينة بيت شان "بيسان".[74]

وبتولي **داود** عليه السلام الحُكم بعد طالوت 1004 ق.م، ينفتح فصل جديد في تاريخ بني إسرائيل وفي انتشار وسيطرة دعوة التوحيد على الأرض المباركة. إذ يُعدّ داود عليه السلام المؤسس الحقيقي لمملكة بني إسرائيل في فلسطين، فقد قضى اليهود الفترة التي سبقت داود دون أن يملكوا سوى سلطان ضئيل في أجزاء محدودة من فلسطين، ودون أن يستطيعوا أن يكونوا سادتها...، ومضى جميع عصر القضاة في القتال الجزئي بجماعات صغيرة، حيث تُدافع كل جماعة (قبيلة) بمشقة عن قطعة الأرض التي استولت عليها.[75]

ولد داود عليه السلام في بيت لحم، واستمر حكمه أربعين عاماً تقريباً (1004–963 ق.م) وكانت عاصمة حكمه في البداية مدينة الخليل حيث مكث فيها سبع أعوام، ثم إنه فتح القدس نحو 995 ق.م فنقل عاصمته إليها، وواصل حربه ضدّ الأقوام الكافرة في الأرض المقدسة حتى تمكن من إخضاعها 990 ق.م تقريباً، وأجبر دمشق على دفع الخراج، وأخضع المؤابيين والأيدوميين والعمونيين.[76] وهكذا سيطر أتباع التوحيد، في ذلك الزمان، على معظم أنحاء فلسطين. غير أن حدود مملكة داود عليه السلام في أغلب الظن لم تلامس البحر إلا من مكان قريب من يوبا "يافا"، ويبدو أن حدود المملكة الإسرائيلية في

أوْجِها كانت 120 ميلاً (191 كم) في أطول أطوالها و60 ميلاً (97 كم) في أعرض عرضها، وأقل من ذلك بكثير في أغلب الأحيان، أي أن مساحتها لم تزد عن 7,200 ميل مربع أي نحو 19 ألف كم^2، وهذا أقل من مساحة فلسطين الحالية بنحو 8 آلاف كم^2. لقد سيطر اليهود على المناطق المرتفعة لكنهم أخفقوا في السيطرة على السهول وخصوصاً أجزاء كبيرة من الساحل الفلسطيني، وهي أجزاء لم تتم لدولتهم السيطرة عليها إطلاقاً طوال قيامها.[77]

وإذا كان يهود هذا الزمان يفاخرون بداود عليه السلام ويعدّون أنفسهم حاملي لوائه وميراثه، فإن المسلمين يعدّون أنفسهم أحق بداود من بني إسرائيل، وهم يؤمنون به نبياً من أنبياء الله، ويحبونه ويكرمونه، ويفاخرون به لأنه أنشأ دولة الإيمان القائمة على التوحيد في فلسطين، وهم السائرون على دربه الحاملون لرايته في هذا الزمان بعد أن نكص عنها بنو إسرائيل، وكفروا وأشركوا، ونقضوا عهودهم مع الله.

ونعلم من القرآن الكريم أن الله سبحانه قد رزق داود عليه السلام العلم والحكمة، وأنزل عليه الزبور، وأنه أوتي ملكاً قوياً، وأن الجبال والطيور كانت تسبح معه، وتذكر الله عندما كان يتلو مزاميره بصوته الخاشع المؤثر ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾،[78] ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.[79] وألانَ الله سبحانه لداود الحديد فكان بين يديه كالشمع أو كالعجين يشكله كيف شاء دون حاجة لصهره في النار، وهذه معجزة أعطاها الله لداود. وكان داود، بالرغم مما أوتي من ملك، يعمل بالحدادة، ولا يأكل إلا من عمل يده. وقد طور داود صناعة الدروع في زمانه، فبعد أن كان الدرع صفيحة واحدة تثقل حاملها، وتعيق حركته هداه الله إلى أن تكون حلقاً متداخلة تسهل الحركة، ولا تنفذ منها السهام... ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾،[80] ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.[81]

وورث **سليمان** عليه السلام أباه داود في العلم والحكم والنبوة، وتشير الروايات إلى أن سليمان كان واحداً من 19 ابناً لداود، وأن سليمان ولد في القدس، وأن حكمه في الأرض

المباركة استمر نحو أربعين عاماً (963–923 ق.م).[82] وقد وهب الله سبحانه سليمان ملكاً لا يحصل لأحد بعده، فقد سخّر الله له الجن لخدمته، كما سخّر له الريح تجري بأمره، واشتهر سليمان بحكمته وعدله وقوة سلطانه، كما علمه الله لغة الطير والحيوانات.

لقد كان ملك سليمان بحدِّ ذاته معجزة ربانية أعطاها الله له دلالة على نبوته، وقد نعمت فلسطين بهذا الحكم الإيماني المعجزة الذي تدعمه قوى الجن والإنس والطير والريح، وكرّم الله سليمان بمعجزة إسالة النحاس له حتى كان يجري كأنه عين ماء متدفقة من الأرض. وشهدت مملكة سليمان حركة بناء وعمران ضخمة، كما امتد نفوذه ليصل مملكة سبأ في اليمن.

ولقد جاء ذكر سليمان مرات عديدة في القرآن الكريم مشيراً إلى علمه وملكه ونبوَّته، قال تعالى متحدثاً عن سليمان ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾.[83]

وقال تعالى ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦ وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧﴾،[84] وقال تعالى ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾،[85] وقال تعالى ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ٨٢﴾.[86] وقد عرفنا من القرآن قصص سليمان مع النملة،[87] ومع الهدهد،[88] ومع بلقيس ملكة سبأ،[89] حيث انتهى الأمر بإسلامها ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾،[90] وقصته في القضاء ببعض الأمور،[91] وقصته في حُبِّه للخيل ورعايته لها.[92]

أما في حديث رسول الله ﷺ فنستشف منه أن سليمان كان ذا قوة بدنية هائلة، وأنه كان محباً للجهاد في سبيل الله، وأنه كان له زوجات كثيرات، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

رسول الله ﷺ قال: "قال سليمان: لأطوفن الليلة على تسعين، وفي رواية: بمئة امرأة، كلهن تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، فقال له الملك: قل إن شاء الله، فلم يقل ونسي فطاف عليهن، فلم تحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل، وأيم الذي نفس محمد بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون".[93]

وكانت وفاة سليمان عليه السلام آية من آيات الله ودرساً من الدروس للإنس والجن، بأن الجن لا يعلمون الغيب؛ إذ إن سليمان عليه السلام وقف يصلي في المحراب وهو متكئ على عصاه فمات وهو كذلك، ومكث فترة طويلة والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة دون أن تدري بموته حتى أكلت الأرضة عصاه فسقط على الأرض، قال تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾.[94]

رابعاً: مملكتا إسرائيل ويهودا:

استمر حكم داود وسليمان قرابة ثمانين عاماً، وهو العصر الذهبي الذي حُكمت فيه فلسطين تحت راية التوحيد والإيمان قبل الفتح الإسلامي لها.

وبعد وفاة سليمان انقسمت مملكته إلى قسمين شكّلا دولتين منفصلتين متعاديتين في كثير من الأحيان، وعانتا من الفساد الداخلي والضعف العسكري والسياسي والنفوذ الخارجي، فعند وفاة سليمان اجتمع ممثلو قبائل بني إسرائيل الـ 12 في شكيم "قرب نابلس" لمبايعة رحبعام بن سليمان، ولكن ممثلي عشر قبائل اتفقوا على عدم مبايعته؛ لأنه لم يعدهم، حسب الروايات، بتخفيف الضرائب، وانتخبوا بدلاً منه "يربعام" من قبيلة أفرايم ملكاً، وأطلقوا اسم "إسرائيل" على مملكتهم، وعاصمتهم شكيم (ثم ترزة ثم السامرة). أما قبيلتا يهودا وبنيامين فقد حافظتا على ولائهما لرحبعام بن سليمان Rehoboam ben Solomon، وكوّنتا تحت حكمه مملكة "يهودا" وعاصمتها القدس.[95]

أما **مملكة "إسرائيل"** فقد استمرت خلال الفترة 923–721 ق.م، وقد سمَّتها دائرة المعارف البريطانية ازدراء "المملكة الذيلية"، وقد خسرت بسبب غزو الدمشقيين كل الأراضي الواقعة شرقي الأردن وشمال اليرموك. وكان "عمري" أشهر ملوك مملكة إسرائيل 885–874 ق.م بنى السامرة، وجعلها عاصمته، أما خليفته "آخاب"

874–852 ق.م، فقد سمح لزوجته "إيزابل" بنت ملك صيدا وصور بفرض عبادة الإله الفينيقي "بعل" مما أدى إلى ثورة قام بها أحد الضباط واسمه "ياهو" أطاحت بآخاب، وأعاد عبادة يهوه Yahweh.

وفي عهد "يربعام الثاني" 785–745 ق.م، وهو الثالث من سلالة ياهو، توسَّعت مملكته شمالاً على حساب الآراميين، لكن ذلك لم يستمر طويلاً؛ إذ أدى ظهور الملك الآشوري "تجلات بلسَّر الثالث" 745–727 ق.م إلى الحد من هذا التوسع، وقام خليفته "شلمنصر الخامس"، ومن بعده "سرجون الثاني" بتأديب "هوشع" آخر ملوك إسرائيل، وقضى على دولته سنة 721 ق.م. وقام الآشوريون بنقل سكان إسرائيل إلى حران والخابور وكردستان وفارس وأحلوا مكانهم جماعات من الآراميين. ويظهر أن المنفيين الإسرائيليين اندمجوا تماماً في الشعوب المجاورة لهم في المنفى، فلم يبقَ بعد ذلك أثر للأسباط العشرة من بني إسرائيل.[96]

أما **مملكة "يهودا"** 923–586 ق.م فحسب الروايات الإسرائيلية (وهي تؤخذ بتفحص وحذر؛ حيث لا يوجد بين أيدينا ما ينفي أو يثبت الكثير مما فيها) فقد انتشرت في حكم يربعام بن سليمان 923–916 ق.م العبادة الوثنية، وفسدت أخلاق القوم بشيوع اللواط، وعندما خلفه ابنه "أبيام" 915–913 ق.م بقيت الأخلاق فاسدة...، وعندما حكم يهورام بن يهوشفاط Jehoram ben Jehoshafat 849–842 ق.م قَتَل إخوته الستة مع جماعة من رؤساء القوم...، أما يوحاز بن يوتام 735–715 ق.م، فيُقال أنه علق قلبه بحب الأوثان حتى إنه ضحى بأولاده على مذابح الآلهة الوثنية، وأطلق لنفسه عنان الشهوات والشرور. وأما منسي بن حزقيا Manasseh ben Hezekiah الذي حكم 687–642 ق.م فيُقال أنه أضلّ قومه عن عبادة الله، وأقام معابد وثنية.[97]

ولسنا نستغرب هذا عن بني إسرائيل فتلك أخلاقهم مع موسى عليه السلام تشهد بذلك، كما أن القرآن الكريم يشير إلى أنهم غيروا وبدلوا وحرفوا كلام الله وقتلوا الأنبياء ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾.[98] ويحدثنا التاريخ أنهم قتلوا النبي "حزقيال" حيث قتله قاضٍ من قضاتهم، لأنه نهاه عن منكرات فعلها؛ وأن الملك منسي بن حزقيا قتل النبي أشعيا بن أموص، إذ أمر بنشره على جذع شجرة، لأنه نصحه ووعظه؛ وأن اليهود قتلوا النبي إرميا رجماً بالحجارة، لأنه وبخهم على منكرات فعلوها.[99]

ويظهر أن مملكة يهودا قد اعترتها عوامل الضعف والوقوع تحت النفوذ الخارجي فترات طويلة، فقد هوجمت مرات عديدة وهزمت، ودخل المهاجمون القدس نفسها، كما فعل شيشق فرعون مصر عندما دخل القدس واستولى على ما فيها (أواخر القرن 10 ق.م)، وهاجم الفلسطينيون والعربُ القدسَ في عهد يهورام 849–842 ق.م فدخلوها واستولوا على قصر يهورام وسبوا بنيه ونساءه، أما الملك حزقيا 715–687 ق.م فقد اضطر لإعلان خضوعه التام لملك الآشوريين سرجون الثاني بعد أن أسقط مملكة إسرائيل.

ودفع منسي بن حزقيا الجزية لـ"أسرحدون" Esarhaddon و"آشور بانيبال" Ashurbanipal ملكي آشور...، وقد قيَّد الآشوريون هذا الملك بسلاسل من نحاس، وذهبوا به إلى بابل، ثم عاد للقدس ومات بها. وأيام حكم "يوشيا بن آمون" 640–609 ق.م تقدم فرعون مصر "نخاو" إلى فلسطين، حيث هزم يوشيا، وأرسله لمصر أسيراً؛ حيث مات هناك، ووضع مكانه "يهوياقيم بن يوشيا" 609–598 ق.م، وقد أَرْهَقَ هذا الحاكم الشعب بالضرائب ليدفع الجزية لسيده المصري، ورجع إلى عبادة الأوثان. وفي أيام يهوياقيم هزم نبوخذ نصر "بختنصر" Nebuchadnezzar البابلي "نخاو" المصري شمال سورية 605 ق.م، وزحف إلى أن وصل للقدس، وأخضع يهوياقيم وأذله، وأدخل البلد تحت نفوذه، ولما ثار يهوياقيم على بختنصر دخل الأخير وجيشه القدس، وقيَّد يهوياقيم بسلاسل من نحاس؛ حيث مات بعد مدة.[100]

وعندما حكم يهوياكين 598–597 ق.م حاصر بختنصر القدس، وأَخَذَ الملك يهوياكين مع عائلته ورؤساء اليهود وقرابة عشرة آلاف من سكانها (فيما يعرف بالسبي الأول) وبعض خزائن الهيكل إلى بابل، ثم إن بختنصر عيَّن صدقيا بن يوشيا Zedekiah son of Josiah 597–586 ق.م حيث أقسم له يمين الولاء، غير أن صدقيا ثار في آخر حكمه على البابليين، الذين ما لبثوا أن زحفوا للقدس وحاصروها 18 شهراً حتى أسقطوها، وأُخذ صدقيا أسيراً ورُبِط بسلاسل من نحاس وسيق إلى بابل؛ حيث يُذكر أنه قُتل أبناؤه أمامه وسُملت عيونه، وخرب نبوخذ نصر القدس، ودمر الهيكل ونهب الخزائن والثروات، وجمع نحو 40 ألفاً من اليهود وسباهم إلى بابل (السبي البابلي الثاني) وهاجر من بقي من يهود إلى مصر ومنهم النبي إرميا. وبذلك سقطت مملكة يهودا 586 ق.م.[101]

ويسجل التلمود أن سقوط دولة اليهود وتدميرها لم يكن إلا "عندما بلغت ذنوب بني إسرائيل مبلغها، وفاقت حدود ما يطيقه الإله العظيم، وعندما رفضوا أن ينصتوا

لكلمات وتحذيرات إرميا". وبعد تدمير الهيكل، وجه النبي إرميا كلامه إلى نبوخذ نصر قائلاً: "لا تظن أنك بقوتك وحدها استطعت أن تتغلب على شعب الله المختار، إنها ذنوبهم الفاجرة التي ساقتهم إلى هذا العذاب".[102]

وتشير التوراة إلى آثام بني إسرائيل التي استحقوا بسببها سقوط مملكتهم، فتذكر على لسان أشعيا، وهو أحد أنبيائهم قوله "ويل للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الآثم، نسل فاعلي الشر، أولاد مفسدين تركوا الرب، استهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى وراء"[103]، وتقول التوراة "والأرض تدنست تحت سكانها؛ لأنهم تعدوا الشرائع، غيروا الفريضة، نكثوا العهد الأبدي"[104].

خامساً: تداول الهيمنة الفارسية والإغريقية والرومانية على فلسطين:

عاش اليهود بعد سقوط ملكهم في فلسطين مرحلة "السبي البابلي" في العراق، وهي الفترة التي يظهر أنهم بدأوا فيها بتدوين التوراة، أي بعد ما لا يقل عن 700 عاماً من ظهور موسى عليه السلام، ولم ينتهوا من تدوينها إلا أواخر القرن الثاني ق.م (بعد أكثر من 400 عاماً)، وخلال هذه الفترة كان اليهود قد تركوا الالتزام بدينهم، وقلدوا الدول التي يعيشون فيها بعبادة الأوثان.

ولاحت الفرصة لليهود للعودة مرة أخرى إلى فلسطين عندما أسقط الإمبراطور الفارسي قورش الثاني Cyrus II الدولة البابلية الكلدانية 539 ق.م بمساعدة يهودية، وانتصر على ميديا، ومدَّ نفوذه إلى فلسطين التي دخلت في عصر السيطرة الفارسية 539–332 ق.م، فقد سمح قورش بعودة اليهود إلى فلسطين كما سمح لهم بإعادة بناء الهيكل في القدس، غير أن القليل من اليهود انتهزوا الفرصة؛ لأن الكثير من السبي أعجبتهم الأرض الجديدة، ولكن القلة المتشددة التي عارضت الاندماج حفظت بني إسرائيل من الاندثار.

ويذكر أحد المؤرخين أن عدد الراجعين كانوا 42 ألفاً وهم أقلية بالنسبة للعدد الحقيقي. وقام هؤلاء اليهود ببناء الهيكل؛ حيث اكتمل بناؤه في 515 ق.م، وفي منطقة القدس

تمتع اليهود بنوع من **الاستقلال الذاتي تحت الهيمنة الفارسية، وهو حكم لم يكن يتجاوز نصف قطره عشرين كيلو متراً** في أي اتجاه (أي ما لا يزيد عن 1,257 كم^2، وهو أقل من 5% من مساحة فلسطين).[105]

وفي 332 ق.م احتل الإسكندر المقدوني Alexander III of Macedon فلسطين في إطار حملته الشهيرة التي احتل خلالها بلاد الشام ومصر والعراق وإيران وأجزاء من الهند، وقد ترك الإسكندر اليهود دون أن يمسهم، ومنذ ذلك التاريخ دخلت فلسطين في عصر السيطرة **الهللينية الإغريقية** الذي استمر حتى 63 ق.م.

وبعد موت الإسكندر نشب نزاع بين قادته أدى إلى توزيع مملكته بينهم فكانت فلسطين (وباقي سورية المجوفة من جنوب اللاذقية ولبنان وأجزاء من سورية كدمشق)، ومصر، وبرقة (ليبيا)، وبعض جزر البحر الإيجي، من نصيب القائد بطليموس الأول Ptolemy I Soter، وسمي حكمه وحكم خلفائه من بعده بـ"عصر البطالمة" وقد استمر في فلسطين من 302–198 ق.م، وقد عطف البطالمة على اليهود الذين كان يدير شؤونهم "الكاهن الأكبر". ثم إن السلوقيين (الذين كان نصيبهم بعد وفاة الإسكندر سورية الشمالية، وآسيا الصغرى، والرافدين والهضبة الإيرانية) استطاعوا السيطرة على فلسطين إثر معركة بانيون Paneion التي حقق فيها الملك السلوقي أنطيوخوس الثالث Antiochus III the Great نصراً كاملاً على البطالمة، وقد استمرت سيطرة السلوقيين على فلسطين حتى 63 ق.م.[106]

وقد حاول السلوقيون صبغ اليهود بالصبغة الهللينية الإغريقية، فحاول أنطيوخوس الرابع Antiochus IV Epiphanes صرف اليهود عن دينهم وأرسل في 167 ق.م أحد قادته وكلفه إلغاء الطقوس الدينية اليهودية والاستعاضة بالإله زيوس Zeus الأوليمبي عن الإله يهوه، وعيَّن لهم كاهناً إغريقياً وثنياً في القدس، وحرَّم الختان، واقتناء الأسفار المقدسة، وأوجب أكل لحم الخنزير، وبموجب هذه الأوامر انقسم اليهود إلى قسمين: قسم انصرف عن الشريعة مقتنعاً أو مكرهاً وهم "المتهلنون" أو "المتأغرقون" وأقاموا في القدس والمدن الإغريقية، وقسم آخر أقل عدداً هربوا من القدس، وأطلق عليهم اسم "حزب القديسين". وبشكل عام تأثر اليهود بالإغريقية فحلت الآرامية محل العبرية، وأصبحت اليونانية لغة الطبقة المثقفة، ونشأ في اليهود جماعة تناصر اليونانيين تمكنوا من الوصول للحكم بقيادة كبير الكهنة جيسون Jason.[107]

أما الذين هربوا من القدس "حزب القديسين" فقد اعتمدوا لقيادتهم متاثياس (متاييه) كبير عائلة الأشمونيين، والذي مات بعد فترة قصيرة، فخلفه ابنه يهوذا الملقب "المكابي" أي المطرقة، وقد ثار على السلوقيين وانتصر عليهم أكثر من مرة 166–165 ق.م، وانضم إليه قسم كبير من المترددين اليهود. وهذا دفع أنطيوخوس الرابع لإيقاف اضطهاد اليهود فسمح لهم بممارسة دينهم جنباً إلى جنب مع أنصار التأغرق. وعاد "المكابيون" إلى القدس في 164/1/25 ق.م، وما زال اليهود يحتفلون بهذه المناسبة تحت اسم عيد الأنوار "حانوكا Hanukkah".[108]

تأسس لليهود بعد ذلك **حكم ذاتي** في القدس أخذ يتسع أو يضيق وتزداد مظاهر استقلاله أو تضعف حسب صراع القوى الكبرى على فلسطين (الرومان، البطالمة، السلوقيين...). وأصبح الحكم وراثياً في ذرية يهودا المكابي، وقد حكم المكابيون كـ"كبار كهنة"، وسرعان ما سموا أنفسهم ملوكاً على الرغم من أنهم كانوا تابعين، ويدفعون الخراج للسلوقيين، وفي 143 ق.م أعفى الإمبراطور ديمتريوس الثاني Demetrius II اليهود من الضرائب، وأعطى لقب حاكم لـ"سيمون Simon"، واتفق اليهود على اعتباره ملكهم، وبذلك تأسس حكم ملكي اعترف به السلوقيون الذين "أعطوا سيمون أيضاً حق صك النقود".[109]

وفي عهد الملك اليهودي ألكسندر جانيوس Alexander Jannaeus 103–76 ق.م شمل حكمه شرق الأردن الذي سمّاه اليهود بيريا، وتوغل إلى الساحل أيضاً، وكادت حدود مملكته تلامس حدود مملكة سليمان. وقد حكمت بعده أرملته سالوم ألكسندرا Salome Alexandra حتى 67 ق.م، ثم تخاصم ابناها على الحكم، وتدخل العرب الأنباط في مساعدة هيركانوس الثاني Hyrcanus II ضدّ أخيه أريستوبولوس Aristobulus. وفي 63 ق.م قضى القائد الروماني الشهير بومبي Pompey على "الدويلة" اليهودية، ونصَّب هيركانوس الثاني كبيراً للكهنة، وحطَّم أسوار القدس، وبتر الأجزاء الأخرى من أيدي اليهود، وأبقى على استمرار الأسرة المكابية في ظلّ الرومان.[110]

وفي الفترة 47–40 ق.م دخلت "المستعمرة" اليهودية تحت سيطرة حاكم أيدومية "أنتي بيتر Antipater I the Idumaean". وفي 40 ق.م هاجم الفرس فلسطين ونصبوا "أنتي جونوس Antigonus" أخو "هيركانوس الثاني" حاكماً وكبيراً للكهنة، حيث استمر حكم "أنتي جونوس" ثلاث سنوات، وكان هو آخر حكام الأسرة المكابية.

وفي 37 ق.م انتصر الرومان على الفرس، واستعادوا السيطرة على فلسطين، ونصبوا هيرودس Herod بن أنتي بيتر حاكماً، وبالرغم من أن هيرودس قد تهوّد، وحاول استرضاء اليهود إلا أنه كان مبغوضاً من قبلهم، وكان هو بشكل عام طاغية ظالماً شديد الولاء للرومان، وقد قام بتجديد الهيكل فضاعف مساحته ورفع سطحه وجعله على جانب عظيم من الإتقان والهندسة.[111]

استمر حكم هيرودس حتى سنة 4 ق.م، وعاصره من الأنبياء زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، كما عاصرته مريم بنت عمران عليها السلام، وفي آخر أيامه ولد المسيح عليه السلام.

كان **زكريا** عليه السلام يعمل نجاراً، وقد تولى كفالة مريم بنت عمران، ورزقه الله سبحانه ولداً هو **يحيى** عليه السلام، بعد أن بلغ الكبر وكانت امرأته عاقراً. وكان لزكريا ويحيى جهود كبيرة في دعوة بني إسرائيل للهداية والحق. وقد جاءت البشارة بيحيى بأنه سيكون ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾،[112] أي يسود قومه ويفوقهم ويحبس نفسه عن الشهوات عفة وزهداً ويكون نبياً.[113] فلما ولد يحيى وبلغ السن الذي يؤمر فيه، قال له تعالى ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾،[114] أي خُذ ما في كتاب الله بجد واجتهاد، وآتاه الله الحكمة ورجاحة العقل منذ صغره ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيًّا﴾.[115] وقام يحيى بواجبه في الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد اشتهر في الأدبيات المسيحية باسم "يوحنا المعمدان"؛ والمعمدان نسبة إلى ما ذُكر أنه كان يُعمِّد الناس (يغسلهم بالماء) لتطهيرهم من الخطايا، وكان يحيى يبشر بقدوم المسيح عليه السلام.

وقد دفع يحيى عليه السلام حياته ثمناً لموقفه الصلب من رغبة هيرودس بالزواج من ابنة أخيه (وقيل ابنة أخته) حين أنكر ذلك، وكانت هذه الفتاة واسمها "هيروديا" بارعة الجمال، فحقدت أم الفتاة والفتاة على يحيى، وتزينت البنت، ودخلت على هيرودس فرقصت أمامه حتى ملكت مشاعره، فطلب منها أن تتمنى فتمنت رأس يحيى، فاستجاب لها وقتل يحيى وقدم رأسه على طبق هدية لها[116] ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيًّا﴾.[117]

ولم يكتفِ هيرودس بجريمته هذه؛ إذ إنه قتل زكريا عليه السلام أيضاً؛ حيث نشره بالمنشار؛ لأنه دافع عن ابنه يحيى، وعارض صحة الزواج لمانع القرابة.[118]

أما **مريم**، سيدة نساء العالمين، فقد ولدت قبل يحيى عليه السلام، وكانت أمها قد نذرتها وهي جنين في بطنها في سبيل الله ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا

زَكَرِيَّا﴾[119] واصطفى الله مريم ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.[120]

وقدر الله سبحانه أن يجري معجزته العظيمة بأن تلد مريم ابنها المسيح من دون أب، وأن يتم ذلك بكلمة من الله "كن"، ونقف هنا لنقرأ النص القرآني الموجز المعجز حول قصة المسيح ورسالته ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾.[121]

وُلِد **عيسى** بن مريم عليهما السلام نحو 4 ق.م في بيت لحم، وتذكر الروايات أن مريم هربت بعيسى مع يوسف "النجار" إلى مصر خوفاً على ابنها من ظلم هيرودس وبطشه، ثم ما لبثوا أن عادوا بسرعة إلى مدينة الناصرة؛ حيث عاش طفولته وشبّ على عوده هناك، ولذلك عرف باسم "يسوع الناصري" وسمي أتباعه "النصارى".[122]

لقد كان عيسى بن مريم عليهما السلام آية من آيات الله حسم حقيقة أمره أمام الناس وهو رضيع في مهده، فأكد أنه عبد الله وبشرهم بنبوته ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾.[123]

وهناك في الأرض المباركة فلسطين قام عيسى عليه السلام بواجب الدعوة إلى الله، وبذل جهوداً كبيرة في هداية بني إسرائيل، وبشرهم بقدوم خاتم الأنبياء محمد ﷺ ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.[124] وعلى الرغم من المعجزات التي أجراها الله على يديه وما تضمنته رسالته من حقّ ونور إلا أن بني إسرائيل جحدوا وأنكروا وناصبوه العداء، ولم يؤمن به إلا عدد ضئيل.

ويذكر التاريخ أنه لما جاء عيد الفصح في 30م ذهب المسيح إلى أورشليم (القدس) وزار الهيكل واستنكر وجود الصيارفة والباعة،[125] وفي إنجيل متى (12/21–13) "ودخل

يسوع إلى هيكل الله، وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل، وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام، وقال لهم: مكتوب أن بيتي [هكذا النص] بيت الصلاة يُدعى، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص".[126]

وقد حقد زعماء اليهود والوجهاء على المسيح، وفي إنجيل لوقا (47/19) "وكان يعلّم كل يوم في الهيكل وكان رؤساء الكهنة والكتبة مع وجوه الشعب يطلبون أن يهلكوه"،[127] وسارع مجلس اليهود الديني "السنهدرين Sanhedrin" إلى الاجتماع، وقرر القبض على المسيح، وأصدر في الحال حكماً بإعدامه بتهمة التجديف، والخروج عن الدين، ثم إنهم ساقوه إلى الوالي الروماني، في ذلك الوقت، بيلاطس البنطي Pontius Pilate، الذي يحق له وحده تنفيذ الإعدام، ولم يجد هذا جرماً من المسيح يوجب قتله، فقامت قيامة خصومه من اليهود، وأخذوا يصرخون بصوت واحد: اصلبه، اصلبه "دمه علينا وعلى أولادنا".[128]

وقد اضطر كارهاً إلى الموافقة على إعدامه، غير أن الله سبحانه أدركه برحمته، فرفعه إليه في الوقت الذي ظنّ فيه اليهود أنهم قتلوه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾.[129]

وطويت هذه الصفحة من تاريخ الصراع بين الحق والباطل على الأرض المقدسة، فقد كذب بنو إسرائيل بآخر نبي أرسل إليهم، واتهموه بالسحر وتآمروا عليه.

وآمن بعيسى **الحواريون**، وأخذوا ينشرون دعوته من بعده، ويلاقون في سبيلها الاضطهاد والأذى، واستمر الحواريون في دعوة اليهود، وكانوا يخطبون في الهيكل، ولما تضاعف عدد النصارى بعد بضع سنوات خاف اليهود من انتشار الدعوة، وطلبوا القبض على بطرس Peter وغيره لمحاكمتهم أمام "السنهدرين"، إلا أن المجلس اكتفى بجلدهم وأطلق سراحهم، وهرب المهتدون الجدد إلى السامرة وقيسارية وأنطاكية فأنشأوا الجماعات المسيحية. ووصل بطرس إلى روما؛ حيث أنشأ جماعة مسيحية، وكان يركز في دعوته على اليهود، أمّا بولس Paul فكان يدعو الوثنيين كما يدعو اليهود، واستخدم في دعوته المصطلحات والمفاهيم الفلسفية لتفسير المسيحية بما يتلائم مع الثقافة الهلنستية السائدة آنذاك.

وانتهى الأمر ببولس وبطرس بأن حكم عليهما بالإعدام في عهد الإمبراطور الروماني نيرون Nerone في 64م، غير أن رسالة عيسى عليه السلام ما لبثت أن تعرضت للتشويه، وما لبث

الإنجيل الذي جاء به أن تعرض للتحريف، وتأثر أتباعه من بعده بالحضارة الهلنستية ونظام الحكم الروماني، واختلطت دعوتهم بالكثير من التقاليد والطقوس والتعاليم السائدة في البلدان التي انتشرت فيها، فأصبح من السهل على الشعوب اعتناقها، غير أن المسيحية لم تنطلق من إطارها المحدود إلا بعد أن آمن بها الإمبراطور قسطنطين Constantine في 325م وأصبحت الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية،[130] وقد اهتم قسطنطين بفلسطين، وبنى في القدس كنيسة الضريح المقدس التي أصبحت أعظم الكنائس المسيحية شأناً، وبنى فوق جبل الزيتون كنيسة الصعود، وأقام كنيسة الميلاد في بيت لحم، وعلى كل حال، فقد دخل أهل فلسطين في ذلك الوقت في النصرانية إلى أن جاء الفتح الإسلامي لها.[131]

سادساً: نهاية الوجود السياسي اليهودي في فلسطين:

ونعود مرة أخرى لنرى أحوال بني إسرائيل في فلسطين بعد صعود المسيح، فقد كان الرومان قد بدأوا حكماً مباشراً على القدس وباقي فلسطين منذ 6م، بعد أن خلعوا أرخيليوس الذي خلف أباه هيرودس لسوء حكمه، وفي عهد واليهم بيلاطس البنطي 26–36م حدثت وقائع السيد المسيح عليه السلام، وقد ثار اليهود على حكم الرومان في تشرين الثاني/ نوفمبر 66م في عهد الإمبراطور نيرون، واستطاع القائد العسكري الروماني تيتوس Titus إخماد هذه الثورة في أيلول/ سبتمبر 70م بعد أن استمرت أربعة أعوام فدخل القدس بعد حصار شديد، وأعمل القتل والنهب والحرق، ودمَّر الهيكل الذي بناه هيرودس حتى لم يبقَ حجر على حجر، وأصبحت مدينة القدس قاعاً صفصفاً، وبيع كثير من الأسرى عبيداً في أسواق الإمبراطورية الرومانية بأبخس الأثمان، وكانت أمنية اليهودي أن يشتريه من يرفق به، فلا يرسله إلى حلقة المصارعة مع الوحوش التي اعتاد الرومان التلذذ بمنظرها وهي تلتهم الناس، وبنى هذا القائد قوساً في روما بمناسبة نصره على اليهود، وهو ما يزال قائماً إلى الآن، وعليه نقوش ذكرى ذلك الانتصار، ويُرى فيه الشمعدان ذو الرؤوس السبعة المشهور عند اليهود، والذي أخذه من الهيكل.[132]

ثار اليهود مرة أخرى على الرومان بقيادة باركوخبا Bar Kokhba، واسمه الأصلي سيمون Simon، واستمرت ثورتهم ثلاث سنوات 132–135م، واجتمع تحت لوائه عدد كبير من اليهود، واستطاع احتلال القدس، غير أن الإمبراطور الروماني هادريان Hadrian أرسل جيشاً كبيراً بقيادة جوليوس سيفروس Julius Severus الذي احتل

القدس ثانية وهزم اليهود، الذين هربوا إلى بتِّير؛ حيث ما تزال خرائب القلعة التي تحصن فيها اليهود، وهزموا، وسماها العرب "خربة اليهود". وقد نكَّل هادريان بالثائرين أشد تنكيل، ودمر "أورشليم" وحرث موقعها الذي كانت قائمة عليه، وقتل وسبى أعداداً كبيرة من اليهود، ثم منع اليهود من دخول القدس والسكن فيها، بل والدنوّ منها، وسمح للمسيحيين بالإقامة فيها على ألا يكونوا من أصل يهودي. وأقام هادريان مدينة جديدة فوق خرائب "أورشليم" سماها إيليا كابيتولينا، حيث عرفت بعد ذلك بـ"إيلياء" وهو اسم هادريان الأول، وأقام هيكلاً وثنياً لإله الرومان جوبيتر Jupiter على مكان الهيكل القديم نفسه.[133]

واستمر حظر دخول القدس على اليهود نحو 200 عام تالية،[134] وندر دخولهم إليها وإقامتهم فيها طوال القرون التالية حتى القرن الـ 19. وتشرد بنو إسرائيل في الأرض، ولم يعد لهم في فلسطين سوى الذكريات التي أكثرها كفر وفسق وبغي وقتل للأنبياء، فكان جزاؤهم غضب الله عليهم ولعنته وحرمانهم من الأرض المقدسة وتشردهم في الأرض.

وفي الختام نذكر قول هيربرت جورج ولز H.G. Wells في كتاب "موجز تاريخ العالم A Short History of the World" حول تجربة بني إسرائيل في فلسطين بعد السبي البابلي: "كانت حياة العبرانيين [في فلسطين] تشبه حياة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم، فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار، ومن الأول إلى الآخر لم تكن مملكتهم سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسورية وآشور وفينيقية، ذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم".[135]

ويذكر المؤرخ المشهور جوستاف لوبون Gustave Le Bon أن بني إسرائيل عندما استقروا في فلسطين "لم يقتبسوا من تلك الأمم العليا سوى أخس ما في حضارتها، أي لم يقتبسوا غير عيوبها وعاداتها الضارة ودعارتها وخرافاتها، فقربوا لجميع آلهة آسيا، قربوا لعشتروت ولبعل ولمولوخ من القرابين ما هو أكثر جداً مما قربوه لإله قبيلتهم يهوه العبوس الحقود، الذي لم يثقوا به إلا قليلاً" ويقول: "اليهود عاشوا عيش الفوضى الهائلة على الدوام تقريباً ولم يكن تاريخهم غير قصة لضروب المنكرات..." ... "إن تاريخ اليهود في ضروب الحضارة صفر... و(هم) لم يستحقوا أن يعدوا من الأمم المتمدنة بأي وجه"، ويقول جوستاف لوبون أيضاً "وبقي بنو إسرائيل حتى في عهد ملوكهم

بدواً أفّاقين مفاجئين مغيرين سفاكين... مندفعين في الخصام الوحشي"، ويقول: إن مزاج اليهود النفسي "ظلّ على الدوام قريباً جداً من حال أشد الشعوب ابتدائية فقد كان اليهود عُنُداً مندفعين غفلاً سذجاً جفاة كالوحوش والأطفال"... "ولا تجد شعباً عطل من الذوق الفني كما عطل اليهود".[136]

خلاصة:

- إن سكان فلسطين قد جاء معظمهم من جزيرة العرب، وإنهم ظلّوا سكان هذه البلاد حتى عصرنا هذا.
- إن الله قد وعد بني إسرائيل الأرض المقدسة عندما كانوا مستقيمين على أمر الله، وعندما كانت تسوسهم الأنبياء، فلما بدلوا وأعرضوا وكفروا ذهب هذا الحق من أيديهم.
- إن المسلمين هم أولى من بني إسرائيل بأنبيائهم، وهم الورثة الحقيقيون لتراثهم، ودعوة الإسلام هي استمرار لدعوة هؤلاء الأنبياء، وإن الحق الذي سعوا لتكريسه هو الحق الذي يسعى المسلمون لتكريسه.
- إن مُلك بني إسرائيل لم يشمل في أي يوم من الأيام كل فلسطين المعروفة بحدودها الحالية، وإن المدة التي حكموا فيها بشكل مستقل تماماً هي مدة ضئيلة قياساً إلى تاريخ فلسطين، وإنهم حتى عندما كانت لهم مملكتان كانوا في كثير من الأحيان خاضعين لنفوذ قوى أكبر منهم.
- إن الحكم الذاتي الذي تمتع به اليهود بعد عودتهم من السبي البابلي كان ضعيفاً ومحدوداً بمنطقة القدس وضواحيها، ولم يتمتعوا بعد ذلك إلا باستقلال محدود في عهد المكابيين.
- إن اليهود بعد ذلك تشردوا في الأرض، ولم تعد لهم صلة بفلسطين لفترة استمرت نحو 1900 عام متصلة.

هوامش الفصل الأول

[1] **القرآن الكريم**، سورة النحل: 36.

[2] **القرآن الكريم**، سورة الشعراء: 105، 123، 141، 160، 176.

[3] انظر: عمر سليمان الأشقر، **العقيدة في الله**، ط 5 (الكويت: مكتبة الفلاح، 1984)، ص 256–261.

[4] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 64.

[5] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 181.

[6] **القرآن الكريم**، سورة التوبة: 30.

[7] انظر: محمد علي الزعبي، **دقائق النفسية اليهودية** (بيروت: د.ن، 1968)؛ وانظر أيضاً: بولس حنا مسعد، **همجية التعاليم الصهيونية** (بيروت: دار الكتاب العربي، 1969).

[8] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 67–68.

[9] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 127–128.

[10] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 130–133.

[11] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 136.

[12] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 21.

[13] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 157.

[14] **القرآن الكريم**، سورة الصف: 6.

[15] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 13.

[16] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 60.

[17] **سفر التكوين** (1/12) نقلاً عن: سمير أيوب، **وثائق أساسية في الصراع العربي الصهيوني** (بيروت: دار الحداثة، 1984)، ج 1، ص 29.

[18] **سفر التكوين** 14/13، نقلاً عن: المرجع نفسه، ج 1، ص 31–32.

[19] **سفر التكوين** 15، نقلاً عن: المرجع نفسه، ج 1، ص 32.

[20] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 124.

[21] انظر مثلاً: محمد أديب العامري، **عروبة فلسطين في التاريخ** (صيدا – بيروت: المكتبة العصرية، 1972).

[22] حول الفقرات التاريخية السابقة، انظر: المرجع نفسه، ص 16–17، و29، و64، و73–74، و84، و86، و96–97.

[23] سنشير بالتفصيل إلى هذا الموضوع لاحقاً.

[24] **الموسوعة الفلسطينية**، إشراف أحمد المرعشلي (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، 1984)، ج 1، ص 37.

[25] انظر في **القرآن الكريم** حول ما سبق من قصة إبراهيم عليه السلام: **سورة البقرة**: 258، و**سورة الأنبياء**: 51–71.

[26] **القرآن الكريم**، سورة الصافات: 99؛ وانظر قصة إبراهيم عليه السلام بالتفصيل في: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ط 5 (بيروت: مكتبة دار المعارف، 1983)، ج 1، ص 146–175.

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات - بيروت

[27] محمد العامري، **عروبة فلسطين في التاريخ**، ص 95؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 37.

[28] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 71.

[29] محمد العامري، **عروبة فلسطين في التاريخ**، ص 96–98؛ ومصطفى مراد الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ق 2 في بيت المقدس (1) (بيروت: دار الطليعة، 1975)، ص 96–97.

[30] **القرآن الكريم**، سورة هود: 72.

[31] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 127.

[32] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 37.

[33] المرجع نفسه؛ ومصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ق 2 (1)، ص 25–26.

[34] حديث متفق عليه.

[35] **القرآن الكريم**، سورة النحل: 120.

[36] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 80–84.

[37] **القرآن الكريم**، سورة هود: 82–83.

[38] **القرآن الكريم**، سورة العنكبوت: 32.

[39] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 74.

[40] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 72–73.

[41] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 4، ص 632–633.

[42] المرجع نفسه.

[43] **القرآن الكريم**، سورة القصص: 38.

[44] **القرآن الكريم**، سورة القصص: 4.

[45] **القرآن الكريم**، سورة القصص: 5–6.

[46] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 104–105؛ انظر قصة موسى عليه السلام بالتفصيل في: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 1، ص 237–319.

[47] انظر مثلاً في: **القرآن الكريم**، سورة طه: 42–76.

[48] **القرآن الكريم**، سورة يونس: 83.

[49] **القرآن الكريم**، سورة الشعراء: 63–66.

[50] انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ج 4، ص 390–391.

[51] **القرآن الكريم**، سورة يونس: 92.

[52] **القرآن الكريم**، سورة يونس: 92.

[53] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 138.

[54] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 148.

[55] **القرآن الكريم**، سورة طه: 88.

[56] **القرآن الكريم**، سورة الأعراف: 150.

[57] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 21.

[58] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 22.

[59] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 24.

[60] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ط 7 (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1971)، ج 2، ص 695–697.

[61] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 25.

[62] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 26.

[63] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج 2، ص 698.

[64] نقلاً عن: محمد عبد الله الخطيب التبريزي، **مشكاة المصابيح**، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني (بيروت: المكتب الإسلامي، 1985)، ج 2، ص 159.

[65] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ق 2 (1)، ص 121–122، و124، و138.

[66] حديث رواه أحمد على شرط البخاري، وبنفس معناه دون ذكر اسم يوشع حديث رواه مسلم وآخر رواه البزار، انظر: إسماعيل بن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1969)، ج 1، ص 302–303.

[67] محمد العامري، **عروبة فلسطين في التاريخ**، ص 138.

[68] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 246.

[69] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 247.

[70] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 247.

[71] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 249.

[72] **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 249.

[73] انظر: قصة بني إسرائيل مع نبيهم ومع طالوت في: **القرآن الكريم**، سورة البقرة: 246–251.

[74] انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 184.

[75] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم 1220 ق.م – 1359م: منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي** (بيروت: دار النفائس، 1984)، ص 35.

[76] المرجع نفسه، ص 43.

[77] انظر: المرجع نفسه، ص 48–49.

[78] **القرآن الكريم**، سورة ص: 17–20.

[79] **القرآن الكريم**، سورة ص: 26.

[80] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 80.

[81] **القرآن الكريم**، سورة سبأ: 10–11.

[82] انظر: ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 45؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 184–185.

[83] **القرآن الكريم**، سورة ص: 35–40.

[84] **القرآن الكريم**، سورة النمل: 16–17.

[85] **القرآن الكريم**، سورة سبأ: 12–13.

[86] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 81–82.

[87] **القرآن الكريم**، سورة النمل: 18.

[88] **القرآن الكريم**، سورة النمل: 20–28.

[89] **القرآن الكريم**، سورة النمل: 22–44.

[90] **القرآن الكريم**، سورة النمل: 44.

[91] **القرآن الكريم**، سورة الأنبياء: 78–79.

[92] **القرآن الكريم**، سورة ص: 31–34.

[93] حديث متفق عليه.

[94] **القرآن الكريم**، سورة سبأ: 14.

[95] انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 185؛ وظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 46.

[96] انظر: **الموسوعة الفلسطينية**، ج 1، ص 238، وج 3، ص 185–186؛ وظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 55.

[97] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 9، ق 2 (1)، ص 41–51.

[98] **القرآن الكريم**، سورة المائدة: 70.

[99] انظر: محمد الزعبي، **دقائق النفسية اليهودية**، ص 75.

[100] انظر: مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 9، ق 2 (1)، ص 41–51.

[101] المرجع نفسه، ص 51–52؛ وظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 58–59.

[102] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 59.

[103] **سفر أشعيا**، الإصحاح الأول (4).

[104] **سفر أشعيا**، الإصحاح 24 (5).

[105] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 64–67.

[106] المرجع نفسه، ص 68، و74؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 266.

[107] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 75؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 266.

[108] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 77؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 267.

[109] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 78–79؛ و**الموسوعة الفلسطينية**، ج 3، ص 267–268.

[110] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 80–84.

[111] المرجع نفسه، ص 86–87؛ ومصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 9، ق 2 (1)، ص 62.

[112] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 39.

[113] محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، ط 3 (بيروت: دار القرآن الكريم، 1981)، ج 1، ص 201.

[114] **القرآن الكريم**، سورة مريم: 12.

[115] **القرآن الكريم**، سورة مريم: 12؛ وانظر: محمد علي الصابوني، **صفوة التفاسير**، ج 2، ص 213.

[116] انظر: محمد الزعبي، **دقائق النفسية اليهودية**، ص 76.

[117] **القرآن الكريم**، سورة مريم: 15.

[118] ورد في الحديث أن زكريا نُشر بالمنشار. انظر قصة زكريا في: إسماعيل بن كثير، **البداية والنهاية**، ج 2، ص 47–55.

[119] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 37.

[120] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 42.

[121] **القرآن الكريم**، سورة آل عمران: 45–49.

[122] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 4، ص 214.

[123] **القرآن الكريم**، سورة مريم: 30–31.

[124] **القرآن الكريم**، سورة الصف: 6.

[125] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 4، ص 216.

[126] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 9، ق 2 (1)، ص 66.

[127] نقلاً عن: المرجع نفسه.

[128] نقلاً عن: المرجع نفسه.

[129] **القرآن الكريم**، سورة النساء: 157–158.

[130] **الموسوعة الفلسطينية**، ج 4، ص 217.

[131] المرجع نفسه، ج 3، ص 573.

[132] مصطفى الدباغ، **بلادنا فلسطين**، ج 9، ق 2 (1)، ص 68–70.

[133] المرجع نفسه، ص 71–72؛ وظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 91–93.

[134] ظفر الإسلام خان، **تاريخ فلسطين القديم**، ص 93.

[135] المرجع نفسه، ص 98.

[136] انظر: المرجع نفسه، ص 117–124.

The Road to Jerusalem

A Historical Study of the Islamic Experience in the Land of Palestine From the Time of the Prophets to the Twenty First Century

هذا الكتاب

فلسطين... الأرض المباركة، ساحة الصراع الدائم بين الحق والباطل، منذ أن رفع إبراهيم عليه السلام راية الحق والتوحيد فيها وأجيال الأنبياء والصالحين والشهداء تتوارثها وتتداولها، تحافظ على هويتها وأصالتها. كلما أَنَّت الأرض المقدسة من وطأة الغاصبين، كلما جاء من أهل الحق من يجلو عنها الظلام، لتشرق من جديد بنور التوحيد.

هذا الكتاب... يستعرض التجربة الإسلامية على أرض فلسطين منذ عصور الأنبياء إلى عصرنا (حتى سنة 2022)، يدرس الفتح الإسلامي لفلسطين، وتجربة تحريرها من أيدي الصليبيين والتتار، ويستقرئ واقعها الحديث والمعاصر منذ أواخر الدولة العثمانية؛ ويسلّط الضوء على دور التيار الإسلامي في الانتفاضات والثورات والعمل المقاوم، ضد الاحتلال البريطاني والكيان الصهيوني، بما في ذلك أدوار الحاج أمين الحسيني، وحركة القسام "الجهادية" والإخوان المسلمين وحماس والجهاد الإسلامي...

إنه دعوة لاحتفاظ الأمة بأصالتها والإصرار على حقها، وتأكيد على أن الكيان الصهيوني الغاصب إنما هو مرحلة من تاريخ الصراع وحلقة من سلسلته، وسيزول كما زال من سبقه من أهل الباطل، عندما تثوب الأمة المسلمة إلى رشدها وتستجمع عوامل قوتها ووحدتها ونهضتها.

هذا الكتاب... يستجيب لرغبة الكثير من القراء في التعرف على مجمل تاريخ فلسطين وقضيتها من وجهة نظر إسلامية، وهو كتاب أكاديمي موثّق من الناحية العلمية، حافل بالمعلومات، ولكنه جاء سهلاً بعيداً عن الجفاف والجمود، كما سعى لأن يستلهم مواطن العبرة والعظة، دونما حاجة لخطابة عاطفية أو إنشاء.

ISBN 978-614-494-036-5

مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات
Al-Zaytouna Centre for Studies & Consultations
ص.ب.: 14-5034 بيروت – لبنان
تلفون: 644 803 1 961+ | تلفاكس: 643 803 1 961+
info@alzaytouna.net | www.alzaytouna.net